دلالة البنية المكانية والزمانية في روايـــة (عـــودة الثعبان) لـــ : عمـــر أحمد جبريل

د. صبحية خليفة محمد الحـــلالي ـ كلية الآداب . جامعة الزاوية

مدخـــل :

مـــن المعروف أن الرواية العربية قد نشأت في أحضان الرواية الغربية منذ بدايات الاتصال بالحضارة الغربية على أيدي الرواد الأوائل فـــي أواخر القرن التاسع عشر ، لكن المراحل التالية لذلك بدأت تشهد خصوصية الارتداد للتراث الســـردي العربي القديم ، بوصفه معيناً لا ينضب ؛إذ راح الروائيون العرب يبحثون عن خصائص ومـــلامح للفن الروائي العربي مستمدة من البيئة الزمانية والمكانية العربية؛ إذ ينطوي التراث العربي الإسلامي وبخاصة ، فيما يمتلكه من خصوبة للرواية العربية الجديدة يرتد فيه الروائي المعاصر إلى التراث العربي .

وعلى هذا الأساس يقدم عمر أحمد جبريل في روايته عودة الثعبان مضموناً فكرياً معاصراً بقالب تراثي ، إذ يشهد العالم العربـــي تحولات فكرية وحياتية عميقة ، وتداخلات أيديولوجية حتمت على المبدع المعاصر محاولة إبرازها ومعالجتها في قالب إبداعي برؤى مبدعها ، وبما يمتلكه من أدوات فنية ، ولم يستطع عمر جبريل أن يصمد أمام الصراع الفكري المعاصر الذي تحياه الأمة ، فلجأ إلى الرواية بحثاً عن فضاء يبث فيه رؤاه دون الانسلاخ عن الواقـــع ، بل ملامسة قيمه المادية والفلسفية والروحية ، ومن الناحية الفنية أن الشكل الروائي وطرائق السرد في هذه الرواية ذو جذورعريقة في التراث العربي القديم ، فعمر جبريل يؤصل أسلوب الحكاية الذي تجلى بوجود الحكاءة التي أمسكت زمام القص ، وأسهمت في إنقاذ السرد الروائي من الانقطاع بفعل احتراق الرواية مع محتويات البنية التقليدية القديمة ، فلولا الحكاءة لما كانت الحكاية ، ولما تمكن الكاتب من تعميق رؤياه ، وقد جاء الفعل الحكائي ممزوجاً بحس المغامرة والطابع الغرائبي المميز لأدب الرحلات ، مما جعله يقدم للقارئ بانوراما روايته ضمن رؤية معاصرة ، والسرد الروائي في رواية " عودة الثعبان " يتجسد على صعيد كلي يمكن أن يأخذ شكل بنيات سردية صغرى ، لكنها لا تلبث أن تتناسل مكونة مبنى سردياً محكم البناء ، كما نلاحظ في هذه الرواية أن الانطلاق من نص سردي قديم يحقق تفاعلاً نصياً وحضارياً ، يمكن من خلاله إقامة تناصات تاريخية وفكرية عميقة ،

بما ينتج نصاً سردياً جديداً قادراً على انتاج الدلالة المعاصرة ذات الصلة الوثيقة بالزمن المعاصر الذي أبدعت فيه الرواية ، إذ يتسلط السرد التراثي، ويستبد باسلوب الكاتب وأدواته الفنية في بناء الحدث الروائي وإحداث الفاعلية في التلقي وصولاً إلى مبتغى الكاتب ورؤاه الفكرية .

وتسعى هذه الدراسة للبحث في مدلول المكان والزمان الروائي في هذه الرواية ، حيث نجد للمكان حضوراً بارزاً منذ بداية النص وعلى امتداد صفحات الرواية ، وكذلك المدلول الزماني من خلال معرفة الفرق الكبير بين القرية والمدينة ، من خلال تسليط الضوء على كشف التباينات الاجتماعية والفكرية ، ومستوى الوعي المعيشي بين أفراد القرية وأفراد المدينة .

دلالـــــة البنية المكانيـــــة :

أولا ـ مفهوم المكـــــان :

أ ـ لغة : وردت كلمة (مكان) في المعجم الوسيط بمعنى :" المكان ويقصد بها المنزلة ،ويُقال هو رفيع المكان والموضع ،جمع (أمكنة) ، والمكانة : المكان بعينيه السابقتين " (1)، وفي تنزيل العزيز في كتابه الكريم قوله - تعالى - : (**وَلَـــوْ نَشَـــاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِـــهِمْ**) (2)، أي : موضعهم ، كما وردت كلمة المكان في رائد الطلاب بصيغة : " المكان جمع أمكنة وأمكن ، جمع الجمع أماكن , ونقصد الموضع أو المنزلة "(3)، لذلك نجد كلمة المكان في أغلب أمهات المعاجم تدل على معان متقاربة ، فنجدها في معجم لسان العرب في مادة (كـــون) بمعنى : " الموضع والجمع أمكنة وأماكن ، توهموا الميم أصلاً حتى قالوا تمكن في المكان ، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل أمسلة ، وقيل: الميم أصل كأنه من التمكن دون الكون "(4).

ب ـ اصطلاحـــاً : عرف المكان عند المؤلف (جيرالد برنس) : يعني المكان أو الأمكنة التي تقدم فيها الوقائع والمواقف ، والذي تحدث فيه اللحظة السردية ، هذا ولو أنه من الممكن أن يتم السرد بدون الإشارة إلى مكان القصة ومكان اللحظة السردي أو العلاقة بينهم (5)، وهناك من يرى أن " المكان يمثل مكوناً محورياً في بنية السرد بحيث لا يمكن تصور حكاية بدون مكان ، فلا وجود لأحداث خارج المكان ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين(6)، وقد عـــرّف محمد مفتاح المكان بقولـــه : " إن الزمان بأنواعه المختلفة إطاره هو المكان الذي ينجز فيه ، ولذلك فإنه لا مناص منه "(7).

فمن هنا نجد أن المكان في هذه الرواية يكتسب أهمية كبيرة ، لا لأنه أحد عناصرها الفنية أو لأنه المكان الذي تجري فيه الحوادث ، وتتحرك خلاله الشخصيات فحسب ، بل لأنه يتحول في بعض الأعمال المتميزة إلى فضاء يحتوي كل العناصر الروائية ، بما فيها من حوادث وشخصيات ، وما بينها من علاقات ، ويمنحها المناخ الذي تُفعل فيه ، وتُعبر عن وجهة نظرها، ويكون هو نفسه المساعد على تطوير بناء الرواية ، والحامل لرؤية البطل ، والممثل لمنظور المؤلف ، وبهذا الحالة لا يكون المكان كقطعة القماش بالنسبة إلى اللوحة ، بل يكون الفضاء الذي تصنعه اللوحة .

إن المكان ليس عنصراً زائداً في الرواية ، فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معاني عديدة ، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله .

لذا نجد المكان في هذه الرواية هو "المكان اللفظي المتخيل ، أي : المكان الذي صنعته اللغة انصياعاً لأغراض التخييل الروائي وحاجاته "(8) ، فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة .

ويستعين الروائي بوصف المكان وتسميته إلى تصوير المكان الخارجي ، كما يسعى إلى تصوير المكان الروائي ، وأي مطابقة بينهما هي مطابقة غير صحيحة ، وما استعانة الروائي بالتسمية أو الوصف إلا لإشارة خيال المتلقي .

فمن هذا نلاحظ أن مكونات السرد الأخرى لا تكتمل إلا بوجود دور المكان ، فالمكان عنصر من العناصر المهمة والضرورية التي تلعب دوراً كبيراً في سير الأحداث في الرواية ، لتنعكس على مضمونها على هيئة رؤى حقيقية واقعية لا يمكن الاستغناء عنها .

دلالة البنية المكانيـــــة :

لا يظهر المكان في الرواية التقليدية مثل رواية : " عــودة الثعبـــان " مجرد خلفية تتحرك أمامها الشخصيات أو تقع فيها الحوادث فحسب ، بل أنه المرتكز الرئيسي الذي يقوم على تسيير حركة البطل وباقي الشخصيات ، لتُكون قالب روائـــي مختلط بين الواقع والخيال ويُجسد حياة الإنسان البدوي (البدائي) وحياته المتنقلة ، وربطها بالتحول إلى الحياة في المدينة .

نلتمس في هذه الرواية بأنها خليط من النموذج التقليدي والرومانتيكي الذي يظهر المكان معبراً عن نفسية الشخصيات ، ومنسجماً مع رؤيتها للكون والحياة ، حاملاً لبعض

الأفكار ، ففي هذه الحالة " يبدو المكان كما لو كان حقيقياً للأفكار والمشاعر والحدوس ، حيث تنشأ الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخـــر"(9)، وفي كلتا الحالتين يظل المكان في إطار المعنى التقليدي هو بمثابة معنى البنية التحتية على حين يمكن أن يحقق المكان بنية فوقية ، يغدو فيها المكان فضاء ، وذلك عندما يسهم المكان في بناء الرواية ، وعندما تخترقه الشخصيات ، " فيتسع ليشمل العلاقات بين الأمكنة والشخصيات والحوادث "، وهي فوقها كلها ليصبح نوعاً من الإيقاع المنظم لها .

إن الوضع المكاني في رواية (عـــودة الثعبان) يمكنه أن يصبح محدداً أساسياً للمادة الحكائية ، ليلاحق الأحداث والحوافز ، أي : أنه سيتحول في النهاية إلى مكون روائي جوهـــري ويحدث قطيعة مع مفهومه كديكور .

يعد المكان في هذه الرواية عنصراً فاعلاً ، في تطويرها وبنائها ، وفي طبيعة الشخصيات التي تتفاعل معه ، وفي علاقات بعضها ببعضها الآخـــر .

وتلاحظ الباحثة : أن النظر إلى المكان في هذه الرواية من خـــلال تحركات البطل في أماكن مختلفة من الجبال والسهول والصحراء والمدن ، يشكل شبكة من العلاقات والرؤى ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشييد الفضاء الروائي ، فالمكان يكون منظماً بنفس الدقة التي نظمت فيها العناصر الأخرى في الرواية ، لذلك فهو يؤثر ببعضها ، ويقوي من نفوذها ، كما يعبر عن مقاصد المؤلف .

دلالة الأماكن المفتوحـــــة :

تلعب الأماكن المفتوحة دوراً في تطور الأحداث داخل هذه الرواية ، من خـــلال دور البطل (دعوة) وحركته وصرعاته المريرة في الجبال ، حيث تكون الأحداث فيها كبيرة ، ومختارة بعناية القاص وحنكته من فوضى الحياة ومن مساحتها العريضة ، حيث تطفو الخطوط المتعلقة بغلاقة البطل بالمكان ، فيظهر المكان من خلا الإنسان ، فالمكان المفتوح في نظر الراوي هو نقطة الاتصال مع العالم الخارجي ، والبيئة التقليدية المختلفة ، من العيش وحيداً والتواصل مع الآخرين .

والهدف من ذلك عند (دعوة) هو الانفتاح والكشف عن معاني البحث والاطـــلاع ، واستكشاف المجهول من خلال الحيوانات والحشرات الموجودة في الصحراء والجبال ، والتأثر بما يحيط بهذا كله من تيارات ومنطلقات وتأثيرات كبيرة على الصعيد الإنساني .

فالمكان يمثل عنصراً بارزاً في العمل الفني ، لا يمكن تجاوزه ، فهو يعمّـــق الصلة والتواصل بين القارئ والنص ، بما يجعل القارئ يشارك الكاتب في بحثه عن المكان واستعادة الذات والهوية .

فالجبال فضاء مكاني تتداخل مع ما يسمى بالفضاء الدلالي المتمثل بإيقاظ الشخصية الذاتية البدائية من خلال التعامل مع صفات الخوف ، والجوع ، والسير تحت إشاعة الشمس المحرقة ، وبين الجبال ،وبين تعرجات الحفر ،بين السقوط والانجراف ، وبين تشابك الأشجار ،والنخيل ، أي : كل شيء موجود في الصحراء عبارة عن امتدادات متصلة ، ولعل ذلك ما يعكس شدة الميل للحرية والانقلاب عن البيئة الصحراوية ، فهذا الرجل (دعوة) يلتجئ إلى الجبل بوصفه المكان الأليف الذي يفرغ كربه واحزانه العميقة ، فالجبل مكان ملائم جداً ، إنه أرحب ، وصدره أكثر أماناً من صدور البشر ، ففيه يودع المرء أحزانه ، إذ نجد في هذه المساحات المترامية انبساطاً سوى بعض الأشجار المتناثرة، كالنخيل ، والسدر، والقـــزاح، والصبار، والرمت ، وشجر الطلح وغيرها ، ومما تشتمل عليه الصحراء (مكاناً) من تفاصيل وقيم معنوية ؛ فالصحراء حكمة ، وهو أمر ينسجم مع السرد والدلالة الاخيرة التي من ورائها فيه .

أما أدوات تأكيد المعطيات الدلالية فترد حيثما ورد توصيف المكان في مشهد يمتلك انسيابيته وإيقاع حركته ، وهذا ما نجده في هذا المقطع من الرواية : " إن في الصحراء ، والصحراء مثل الألم عليك أن تطفئه بالدواء ، ودواء الصحراء التعايش معها وفقاً لتعدد الفرص ، والجوع والألـــم . . . "(10)، " ورددت الجبال معه صدى صراخه ، فتراءى له كأن الجبال قد تحولت كلها إلى شعب يموج في بعضه ويصيح . . . ولم ينتظر حتى يختفي الصدى تماماً ، انحدر بخفه ،ووضع نفسه في الممر الضيق، بين الصخور من جديد ، كجمل مجمل بالإثقال . . ."(11).

نلاحظ التضاد المشهدي بين سكون الجبال ، وصياح الشعب ، يشكل لوحة خلفية للحدث نفسه ، وتجدر الإشارة إلى إن القراءة المتأنية أكثر ستكشف للقـــارئ عن إجابات أشمل وأكثر تفصيلية .

دلالة الأماكن المغلقـــــة :

لقد كان المكان المغلق هو الأساس في النصوص الروائية ، هو البيت سواء القديم أم الحديث ، وهو المحل التجاري ، وكذلك السينما ، فانطلاق مختلف الكتاب كان المكان الطبيعي لنواة المجتمع ألا وهي الأسرة ، ومجمعها البيت الذي يحمل صفة الألفة ،

وانبعاث الدفء العاطفي ، والأمان ، ويسعى إلى ابراز الحماية والطمأنينة في فضائه ، فالأنسان يعيش فيه بالإرادة والاختيار ، ويحن إليه في ترحاله ، ويعود إليه بعد عناء يوم شاق للراحة والسكينة مع أفراد العائلة ، وبخاصة (الأب والأم) فهما ركنا البيت ، فالبيت يلعب دوراً مهماً في الحياة ، إنه مكان السكن والدفء ، والتسامر والاحتواء والتلاحم الاجتماعي ، وبموازاته مقداراً من الهواجس والآلام ، والأمراض، وهذا ما نجده عند (أم فرحانة) تلك السيدة العجوز التي انهكها الزمن ،ودارت حولها الأيام العصيبة ، وقد اصيبت بوعكة صحية، كادت تقتلها ، إلا أن ابنها (عبد العزيز) ، وابنتها (فرحانة) قموا لها كل اهتمامهم وعنايتهم لتصبح على ما يرام .

فمن خلال هذه الرواية نلاحظ أن الـــراوي لا يقوم بتقديم وصف البيت وما يحتويه من أشياء ، بل يذكر الغرض في حدود ما يسمح به الحدث المنجز وعلاقته بذلك الشيء.

ومن الأماكن المغلقة كذلك ذكر (المستشفى) ، وهو المكان الذي يأوي إليه المرضى للعلاج ، وهذا ما تمناه (عبد العزيز) و (فرحانة) للأم ، وذلك بدخولها له لتلقي العلاج إلا أنها رفضت رفضاً قاطعاً .

كما نجد الأماكن المغلقة - أيضاً - هو هاجس المرأة والمكان ، إذ يتزامن عند البطل اكتشاف الأماكن مع اكتشاف اخرفي داخله ، بمشاعر الحب ، فهو الذي لم يعرف معناه إلا برؤية (فرحانة) ، تلك الإنسانة التي تعلقت به ، ولم تصرح بعشقها لـ(دعوة) ، وأبت ألا تكتم سرها في قلبها .

- دلالة البنية الزمانية :

- مفهـــوم الزمـــن في اللغـــة : ورد في معجم كتاب العين بأن الزمن : " من الزمان والزمن ذو زمانه والفعل : زمن يزمن زمناً وزمانة والجميع الزمني الذكر والأنثى وأزمن الشيء: طال عليه الزمان"(12)، ونجده في لسان العرب ، لابن منظور بأنه :" زمن: الزمان والزمان : اسم لقليل الوقت وكثيرة وفي المحكم الزمن ، والزمان العصر، والجمع أزمن وأزمان و أزمنة ، وزمن زامن سديد ، وأزمن الشيء: طال عليه الزمان ، والاســم من ذلك الزمن والأزمنة ، عن ابن الإعرابي : وأزمن المكان : أقام به الزمان "(13)، وفي القاموس المحيط للفيروز آبـــادي :" الزمن أعتبر نفسه والجمع أ زمان وأزمنة وأزمن المكان ، أقام به زمناً ، والتي أطال عليه الزمن "(14) ، كما نجده في القرآن الكريم يتضمن معاني زمنية معينة ، وذلك فـي قوله - تعالى - :(**وَالضُّحَـــى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَـــى**) (15) ، والمعنى الوارد في هذه الآية هو الزمن .

ـ في الاصطـــــلاح : الزمن في الأدب خصوصاً في الجنس الروائي صنيع اللغة ويرتبط بها " ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان الزمن يتخلل الرواية كلها ولا نستطيع أن ندرسه دراسة تجزيئية ، فإن اللغة هي الهيكل الذي تشيد من خلاله الرواية ولا يمكن تجزئتها ، ولا ينفصل الزمن عن اللغة ؛ لأن الزمن يتخلل الرواية كلها من خـــلال اللغة (16).

فاللغة انطلاقاً من طابعها الإشاري توفر حشداً هائلاً من المصطلحات التي تحيل بشكل مباشر أو غير مباشر على الزمن والتي تعين على القبض على صيغ حضوره واشتغاله في النص ، وتتجلى هذه المفردات في الأفعال ، والأسماء والظروف، وأسماء الإشارة . . .

انتقل الزمن إلى حقل الدراسات الأدبية حاملاً معه عدوى الغموض التي اتســم بها، وهو في أحضان الفكر الفلسفي وغيره من الأصول المعرفية الأخـــرى ، و قد " خيمت إشكالية الزمن في القرن العشرين بظلالها على أشكال التعبير ، فجاءت حاملة نفس الميســم ، فالاهتمام بالزمن يبدأ في كل فن ، لكن الاهتمام بالزمن كان أكثر جلاء في الرواية باعتبارها أكثر الأشكال الأدبية مــرونة وحساسية "(17).

فخبرة الكاتب تزداد بزيادة وعيه بالزمن ، وينعكس ذلك بدوره على حياته الأدبية والفكرية، فالزمن كامن في وعي الإنسان ، غير أن كمونة في وعي الكاتب أشد ، وهذا ما يظهر جلياً عند كاتب (تيار الوعي)الذي يعتمد على الزمنين الأدبي والنفسي، وعلى كشف الحالات الشعورية للشخصية الروائية ، فالزمن في هذه الحالة يكون أقرب إلى الزمن النفسي (18).

فالنص الروائي لا يمكنه أن يقوم إلا عندما ترتبط عناصره بعامل الزمن الذي يشكل البنية الخطية له ، أو التي تجعل اللاحق يرتبط بالسابق على عكس التصور التقليدي الذي كان يرى أن" الزمن هو الشخصية الرئيسية في الرواية ، ففي الرواية الجديدة يمكن القول أن الزمن يوجد مقطوعاً عن زمنيته ، إنه لا يجـــري، فزمن الرواية يخلق تلك الاستمرارية السردية التي لم يعرفها في عهدها السابق (19).

دلالـــــة الأزمنـــــــة :

ـ دلالة الأزمنة الخارجية :

أ ـ زمن الكاتب : كثير من الروائيين يأخذون الكتابة نوع من الهواية من أجل ذلك يأخذون زمناً طويلاً لإنهائها، بالإضافة للصعوبات التي تواجههم خلال الســرد وصياغة الأحداث تحول دون الانتهاء من الرواية بسرعة وحالما ينتهي المؤلف من

روايته غالباً ما تكون الخطوة التالية هي نشر تلك الرواية ، فيبحث الكاتب عن دار للنشر لتنشر روايته ؛ وبعض الكتاب ممن لا يجدون داراً للنشر يقومون بنشر مؤلفاتهم على حسابهم الخاص ، فبدلاً من الدفع لدار النشر لنشر الكتاب يقوم بنشر الكتاب والحصول على جميع الأرباح من المبيعات ، ولكن يبقى على الكاتب القيام بكافة الأعمال الأخرى الخاصة بالكتاب ، مثل التوزيع والترويج والإعلان ، ويطبق الروائيون طرقاً مختلفة خلال الكتابة ، ويعتمدون على مجموعة من الأساليب لاستلهام أفكارهم ، وهذا ما نجده عند صاحب الرواية (عمر جبريل) الذي يعرض أفكاره بأبسط الصور ، وأجمل أسلوب حتى كأنك تشاهده وتجالسه عندما تقرأ له ، إنه يشعرك بأنه يخاطبك بعينك ، وكأنه يعرف أسرار حياتك ، فتقرأ له وأنت تتعجب من معرفته بذلك كله .

فهذا النص الســـردي عند الراوي لا يتم فيه تناول الزمن بنفس الطريقة التي يمر بها في الحياة، وما ذاك إلا لأن الراوي مشغول بتقديم الحدث بأبهى صورة ، فرواية (عودة الثعبان) لا تقدم كما هي ، ذلك مستحيل واقعياً وممل فنياً ، بل أن هناك أحداثاً تستدعي التوقف عندها باسلوب يبطئ من إيقاع النص ، هناك وصفاً يفترض وقوف الزمن لتتوقف إيقاعات الحركة لصالح الرؤية ، كما يلتمس في الرواية أن هناك سنوات من الحكي تم اختصارها ليتدفق الإيقاع مختصراً للأعوام في كلمة أو كلمات قلائل ، وهذا ما نراه في النموذج التالي من الروايـــة : " **كلما أقترب من القرية ، كلما انبثقت فيه شكوك قوية ، توحي له بأن هذه القرية ليست القرية التي عرفها ، وعيش فيها ، ومات فيها والده ، وخرج منها كسير القلب ، ناقماً على سكانها ، فها هو يراها الآن ، عامرة بالمباني ، ونبت فيها أشجار غابات باسقة . . .** "(20) ، نجد طريقة الكاتب في التلاعب بالزمن هي التي حددت مدى موهبته ، وبراعة اقتنائه للألفاظ ، إذ نجد الكاتب من خلال هذه الرواية مشغول بسرد حكاية مواراة بالأحداث ، في زمن ليس بالقصير ، وهذا ما يسمى بـ(زمن الدال) وهو زمن غير حقيقي ، ابتدعه الكاتب ليتعارف عليه القارئ ، ويقبل به كزمن متخيل.

إن تمطيط الزمن في هذه الرواية ، تنشئ لدينا نوعاً من السرد الوصفي ، الذي يدمج ما بين المكان المتحرك ، والحركة الموصوفة بتركيز شديد يمنع السيرورة الزمنية من المضي قدماً ، ومع ذلك فلا يزال المتلقي يلهث وراء السرد ، كما لو كان الزمن مختصراً ، وهذا ما نجده في المقطع التالي : " **وفجأة تسمّر الرجل في مكانه ، مثل إنسان آلي قُطع عنه تيار الكهرباء فتوقف تماماً ، وأصبح في وقفته كأنه تمثال حجري قديم ، لم يتحرك منذ آلاف السنين ، أو هو قطيعة جامدة من أحجار راسخة من أحجار**

الجبل ثم أخذ تحرك . . . "(21)، عوالم متعددة لدى الكاتب وحركة مواره ، مع أن الزمن شديد البطء ، وهو ذا يكشف من نوع أخر ، يعطي للسرد دفقاً حيوياً ، ويُتيح للمتلقي استكشاف جماليات استخدام تقنية الراوي العليم .

زمن القـــــارئ : غالباً ما يبحث القارئ العادي في سبب اكتراثه بالرواية بعد مغادرة النص ، وغالباً مالا يعرف ذلك السبب بشكل واضح ، مما يدفعه للبحث عن المزيد من أعمال المؤلف لأجل استعادة تلك اللحظات النوعية التي تشعره بذلك الانسجام الفريد مع الأحداث ، إلا أنه قد يخفق باسترجاع تلك اللحظات ، ويجد أنه قد فقد شغف المتابعة بمجرد انتقال المؤلف إلى ضفة أخرى من ضفاف السرد ، وهذا ما يدفعه للعودة مجدداً للسؤال حول سبب اكتراثه بالرواية .

يكتشف القارئ من هذه الرواية ، وجود قواسم مشتركة بين هواجسه وهواجس المؤلف ، وتفتح مداركه عن إمكانيات التخفيف من واقع ما، والقفز عن أعباء حياتيه ما نحو تفاصيل وجودية أو خيالية أو واقعية ، وتحدث بالفعل وهذه التفاصيل تمنحه مجاز الخروج من واقعه اليومي إلى واقع أكثر مرونة ومطاوعة لمشتاه .

ففي هذه الرواية ينتقل القارئ من كونه مجرد قارئ عادي إلى قارئ نموذجي، يتفحص عوضاً عن أن يقرأ فقط ، ويستكشف عوضاً عن أن يتابع فقط ، ويسجل ملاحظات عوضاً عن أن يحرق الصفحات ، ويصبح شريكاً أساسياً في الرواية ، لا بل قد يكون بطلها أحياناً ، وهذا ما يضع المؤلف أمام خيارين ، فإما الاكتفاء أو المغامرة؛ إذ أن هنالك أنواعاً مختلفة للقارئ منها :

أ ـ **القارئ النموذجـــــي** : هو كائن مجرد يستخلص استخلاصا من النص ، إنه استراتيجية نصية يتوسل بها المؤلف حتى يوفر لأثره مقروئية ناجعة ، فهو المرسل إليه المتخيل الذي لا يقتصر على استيعاب النص القصصي ، وتأويله تأويلاً يساير المقاصد التي وجد من أجلها النص ، فحسب ، بل يجيد التأثير في القارئ .

ب ـ **القارئ الواقعـــــي** : نص قصصي مغلقاً كان أم مفتوحاً لقارئ نموذجي مخصوص ، وهذا مرتبط بالكشف عن زمن الرواية ، وزمن القارئ ، في كون أن النص منفتح على معان متجددة متلبسة بظروف مقامية خاصة بكل فعل قراءة ، إذ أن القارئ هو الصانع الحقيقي للمعنى ، فهو يجد نفسه عبر هذه الرواية قد انغمس في متاهات الزمن البعيد ، مع أحداث صعبة وحياة تقليدية تعمها الفوضى والاضطراب ، بين الأشجار والأحجار ، ومن ثمّ تنتقل تيارات الرواية إلى حياة جديدة داخل مدينة كبيرة مع أسرة

وأفراد وجماعات من البشر ، وطرق ومحلات تجارية ، هنا تختلف الصورة ليضع الكاتب أنظار القارئ إلى معرفة ما مدى الفروق المختلفة بين الحياة التقليدية في الصحراء، وانتقاله إلى الحياة في المدينة .

ـ دلالة الأزمنـــــة الداخليـــــة :

أ ـ **زمن القصـــــة** : هــو زمن الأحداث والوقائع مرتبة ومتتالية وفق مستويات منطقية ، " فالسرد يخضع بالضرورة للتابع المنطقي للأحداث "(22).

ومن خلال لجوء السارد إلى التوثيق التاريخي من خــلال التواريخ المعينة التي يجعلها انطلاقة كل جزء من أجراء الرواية ، إذ أن زمن القصة يتجاوز على نحو الزمن التاريخي بأساليب متعددة كاستباق الأحداث المستقبلية ، أو استرجاع ما مضى عن طريق الوعي أو الرؤيا ، فهذا كله لعب فني لزمنية الأحداث الحكائية ، ولهذا اللعب أهداف جمالية وفنية لولاها لما تمايزت أساليب القصاصين والروائيين لكل أشكالهم ، وفيه يمكن ذكاء السارد وحسن إدارته لمفردات الحكاية حتى تؤدي هدفها التأثيري الإيصالي الجمالي .

يستغل (عمر جبريل) في هذه الرواية إيصال رسالة مضمونها أن هنالك فروق عديدة واختلافات كبرى بين حياة الإنسان البدائي الذي لم يعرف ثقافة الحياة المتمدينة منذ ظهوره على وجه الأرض ، إذ نجده قد ركّــز على بطل الرواية (دعوة)، ذلك الإنسان البدائي الذي عاش في الجبال والصحراء ، بين الأشجار والأحجار وبين المأوى ، معتمداً على الصلصال والطين والنار، وجمع النباتات لأكلها ، وينتقل ويقتات على جنى ثمار الأشجار والفاكهة ، وصيد الحيوانات التي يحصل منها على الجلد واللحم ليسد بها رمقه ، وقد استمر على هذا الحال فترة من الزمن ، حتى التقى بمجموعة من الأشخاص المتمدينين أمثال : خليفة ، يحيى ، إبراهيم ، هذه الشخصيات التي أثارت الفضول والغرابة لدى بطل الرواية ، وذلك عندما كانوا يتحدثون بمصطلحات غريبة حول أشياء توجد في المدينة.

والمتمعن في هذه الرواية يجد الكاتب قد استخدم كشوفات السرد الروائي الحديث الذي كان من أبرزهـــــا :

1- **الحكاء الجدلـــي** : أي : البناء الروائي القائم على تعدد الأحداث التي تفيد ذات الصلة الواحدة إلى مشاهدة متباعدة تتصل مع بعضها البعض دون التطرق إلى وضع فصول متتالية داخل الرواية .

2- **البناء الدائري** : هو البناء الذي يتمثل فيه سرد قصصي تكون نهايته تدعو إلى البداية التي انطلق منها الحدث .

3- **بناء التوازي** : هو البناء الذي يقوم على سرد قصتين أو أكثر ، تدور أحداثهما في فترتين متوازيتين .

4- **التتابع** : هو اشتمال الرواية على حدثين متتاليين إحداهما يعقب الآخر بعد انتهائه وفق منطق التتابع والتسلسل .

فهذه إحدى التقنيات البديعة التي تم توظيفها في هذه الرواية ، فالأحداث الأولى للسرد بدأت بوصف حياة البطل البدائية بين الجبال والصحراء والحيوانات والأشجار ، فكان المكان هو الأرض الفسيحة ، والبيداء ، ومن ثـــم انتقاله إلى المدينة ولقائه مع مجموعة من الشخصيات أمثال : فرحانة ، الأم ، صاحب المحل التجاري ، وعبد العزيز، في محيط مختلف تماماً عما كان فيه بطل الرواية (دعوة).

فهذه الرواية لا تنطوي على ممانعة التشويق عندما يسلم السرد نفسه راضياً مرضياً إلى المتلقي ، لكن طريقة سرد الرواية تشكلك بمصداقية الوقائع التي في الرواية ،وذلك بسبب وجود تلك التفاصيل الدقيقة ، لأنها تحدثت عن وجود أسرار واختلافات بين المجتمع البدائي والمتمدين أي بين القديم والحديث .

زمن الخطـــاب : هو طريقة الحكي التي يتبعها الروائي ، إذ يتم بشكل انسيابي ، بل هي طريقة شاقة ومعقدة ، لأنها تمتثل لعملية تأويل وتمحيص في ذات الروائي ، ثم تقدم وفق اختيار خاص منبثق من المنظور الذي رآها من خلاله ، فبعد أن يتلقى الروائي المادة الحكائية وتختلط في ذاته ، يصوغها من جديد صياغة متميزة ، ثم يعيد تقديمها بواسطة رؤيته المعرفية مجسدة بأسلوبه الخاص فمن مكونات الخطاب الروائي هـــي : الزمـــن ، والصيغة ، والرؤية السرديـــة

فهذه من المكونات المركزية التي يقوم عليها الخطاب من خلال طرفيه المتقاطبين : الراوي و المروي له ،أي أننا وقفنا عند حدوده ما يعرف بالمظهر النحوي أو البنيوي ، وهذا إجراء أساسي يفرضه علينا التحليل السردي في ما يسمى بـ(انفتاح النص الروائي)، نجد أن هذه الرواية هي عبارة عن تاريخ ورؤى فكرية وفلسفية ، لذلك يستحيل إلغاء دور البنى السردية من زمان ومكان وشخصيات وأحداث(23).

فزمن الخطاب مرتبط بلغة الراوي التي تعكس صورته وصورة الآخر، من خلال الواقع الاجتماعي لما يحتويه من أحداث ووقائع تصور بناء الحياة في الإطار العام ،

كما أن زمن الخطاب يشتمل على ثلاث اتجاهات :ماضي ،وحاضر، ومستقبل ولابد من الإنسانية إدراكها والانتقال من جيل إلى جيل ،لأن الزمن في هذه الرواية يشكل جسر عبور يمر الإنسان عبره ، بعد تخطي هذه الاتجاهات ، فكلما زادت قيمة الإدراك لهذه الأبعاد الثلاث زادت قيمة التحفيز لدى الإنسان نحو مواجهة ذاته مع هذه المقولة ألا وهي (الزمن). وهذا ما نجده في النموذج التالي :

" ترجّـــل عن الصخرة في هـــدوء ، بعد أن بح صوته ، وأحس بحشرجة ما تخدش رقبته ،ثم أخذ طريقه بين الصخور، التي تملأ المكان ، متخيراً المسارب الضيقة ، التي تؤدي إلى شعاب جرداء ،عميقة ، وسط الجبال التي يقع فوقها (الجفر) ، متابعاً دبيبه . . . " (24).

علاقـــة الزمـــان بالمكـــان :

الزمان والمكان في هذه الرواية شريكان لا ينفصلان ، إذ أن الزمان يختلط بشكل ما بالمكان لسبب بسيط هو الحركة التي تصنع مظاهر الوجود ، والوجود والزمان مترادفان لأن الوجود هو الحياة ، والحياة هي التغير، والتغير هو الحركة ،والحركة هي الزمان ، فلا وجود إلا بالزمن ، لهذا فإن كل وجود يتصور خارج الزمان ، وجود وهمي أو هو لا وجود ، ومسألة الفصل بين الزمان والمكان هي طبيعة فلسفية تتعلق برؤية ما ، كعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع الذي يعيش فيه ، فوجود الإنسان في الرواية أي : (البطل) في المكان كله مؤسس على الزمن ومبني في الزمن .

لذلك يرتبط الزمان بالمكان في هذا النص الروائي ، بعرى وثيقة لا تنفصم والشخصيات الروائية حين تنهض لإنجاز الأفعال الحكائية المسندة إليها ، معنى ذلك أنها تتأطر في زمان ومكان محددين ، والشخصيات وهي تتحرك يكتسب الزمن بعده الحقيقي لكونه إطار للفعل وموضوع التجربة الإنسانية ، وبإنجاز الشخصيات لوظائفها تتشكل منظومة الأحداث الروائية التي وقعت في زمن محدد ، ومن هنا يمكن القول أن الزمن الروائي في هذه الرواية يشير إلى الحدث الروائي ويكمله وبهذه الميزات يلعب الزمان دوراً مركزياً داخل منظومة الحكي (25).

ومن ذلك نستنتج من خلال هذه الرواية أن الزمان والمكان متلازمان وهما وجهان لعملة واحدة بحث لا يمكن أن نفصل أحدهما عن الآخر ، كما لا يمكن أن نتصور حركة لا تجري في زمان ولا مكان سواء داخل الرواية أو خارجها ، وبالتالي يعد الزمن محور الرواية وعمودها الفقري .

وتلاحظ الباحثة : أن الراوي قد استخدم طريقة المطابقة بين تتابع الأحداث ، إذ أنه قام بترتيب الأحداث ترتيباً منطقياً ، أي : كما وقعت الأحداث بالفعل ، وقد حول الزمن إلى أداة للتعبير عن مواقف الحياة الشخصية من العالم فيمكنها من الكشف عن مستوى وعيها بالوجود الذاتي والمجتمعي .

فقد جسد الزمن حقيقة أبعد من حقيقته اللامرئية ، وخاصة حين يتجلى في بعض النصوص الروائية، بمعنى أنه ممثل لرؤية الروائي ، فهذا يستوجب فهم العلاقات التي تربط الأحداث والشخصيات ، كما ارتبط المكان الروائي ارتباطاً وثيقاً مع الأحداث الروائية التي جرت في رقعته ، فهو إضافة إلى كونه الإطار العام الذي يحتضن الحادثة الروائية ويُطوقها ويحدد انتشارها ، ولا يمكن دراسة الحوادث الروائية إلا في ضوء معطياتها المكانية الحاضنة لها ، إذ لا وجود للمكان إلا باحتضانه لها ، وهو ما تعكسه دلالة المكان في اللسان العربي ، والذي يمثل (مرتكز الحدوث) فلا حدوث بلا مكان ولا مكان ذا وظيفة بلا حدوث ، ويؤدي هذا التلازم إلى الكشف عن البعد الوجودي الذي يقف في الموقع الضـــدي من العدم ، فالمكان رحم الوجود ، وغيابه الخواء والعدم ، كما حضي المكان الروائي باهتمام الرواية الواقعية من خلال سعيها إلى محاكاة الأمكنة الواقعية عبر الاستعانة بالوصف التفصيلي الذي يسبق اختراق الشخصيات لها ، وبالتالي فأن النظر إلى المكان لم يتعد كونه ديكور يقوم بوظيفة تزيينيه ، وبالتالي لا قيمة له فهو مقحم ، ولا يمثل الإطار الخارجي اذي تجري فيه الأحداث ، ومن هنا كان تعامل الكتاب الواقعيين مع المكان الروائي لم يخرج عن رؤيتهم له على أنه مجرد خلفية جامدة تحتضن الحوادث وحركة الشخصيات الروائية، لذا فإن توظيفهم له لا يكتسي أية أهمية فنية أو جمالية وتم افراغه من وظيفته الفنية .

ونستنتج من ذلك : أن هذه الرواية رسمت معالم الـــراوي بحس فني وعالي ، وزودته بكل ما ينـــم عن سمو الذوق وعراقة التاريخ ، وأصالة الثقافة دفعت به إلى خضم التحولات العنيفة التي يشهدها العصر المتبرم من كل القيم الأصيلة ، والمتنكر لتراث الأمس .

الخـاتمـــــة:

نصل في نهاية هذه الدراسة إلى جملة من الاستنتاجات المتعلقة بالدلالات المكانية والزمانية في رواية (عودة الثعبان) والوصول إلى الكيفية التي اعتمدها الروائي في

نسج النصوص السردية بإعطائها صيغة فنية وجمالية ، والمنهجية المسطرة أمكنت الباحثة من الوصول إلى إبراز خصوصية بعض المكونات ، التي نجملها فيما يأتي :

1- تنتمي الرواية إلى النصوص الروائية ذات قيمة عالية وراقية ، التي تظهر جزئياتها بشكل مباشر حيث تحاول توصيل صوتها إلى القارئ من خلال تصوير الواقع الاجتماعي التقليدي والحديث .

2- اهتمت الرواية اهتماماً واسعاً بتصوير الأحداث والزمان والمكان من زاوية تاريخية وكأنها توثق الحقائق الزمنية التاريخية الموجودة على الأرض .

3ـ اهتمام الروائي الكبير بالزمن الذي جسدته حالة اللا تعاقب ، وذلك من خلال الرجوع إلى الماضي ، وكيفية ربطه بالحاضر والمستقبل .

4- احتوت الرواية على الحركات السردية رغم التفاوت الواضح في توظيفها ، فقد اختلفت فترات التلخيص الزمنية وذلك حسب الأحداث المعبر عنها .

5- وضع الكاتب متاهات زمانية للقارئ على أساس أن الزمن جاء متذبذباً في المقاطع الأولى مما يستعصي على القارئ وضع الحذف الافتراضي في موضعه ، أما المشاهد فكانت عند الكاتب الفضاء الأنسب لتقديم الشخصيات ونموها مع تطور الأحداث تبعاً للوظائف الموكلة لها .

6- زمن السرد في الرواية مزدوج يجمع بين السرد اللاحق والسرد المتزامن ، إلا أن الحاضر شغل مكاناً أوسع من الماضي المسترجع ، وعند الرجوع إلى الوراء يتخيل هذا التطابق في كثير من الأحيان .

7- تعددت الشخصيات في هذه الرواية من خلال ظهورها المختلف والمتكرر وفق السياقات والأحداث ، مما أدى إلى ضرورة تنوع أوضاع الساردين التي تجتمع في مجملها لبناء الخطاب الروائي .

8- استثمر الكاتب عنصر المكان الرئيسي كعنصر بنائي جوهري في الرواية يشكل بؤرتها الدلالية ويتقنع به لتمرير آراءه وإعلان موقفه من الواقع وقضاياه المتجسدة .

9- استمد (عمر جبريل) مادته التراثية التي تنتمي إلى حقبة من التاريخ الماضي ، والتي تختلف كل الاختلاف عن وقتنا الحاضر ، من خلال البيئة وطرق العيش ، وهذا ما يسمى زمن القراءة المتعدد ، الذي يجعل من النص نهجاً مطابقاً للزمن الذي يقرأه القارئ .

10- من الملاحظ من خلال السرد اهتمام السارد بنقل معالم الحدث بأدق تفاصيله ، لينقل القارئ بمشاعره إلى فضاء المكان الذي يصفه ، فعرض (عمر جبريل) أنماط السرد في هذه الرواية وطبيعته ووظائفه ، حيث ناسبها في سباق الموقف بشكل جذاب ، يُشعر القارئ والمتلقي بجمال الوصف والصياغة المتقنة .

11- تميز المكان في الرواية بميزة التفاوت من خلال الضيق والاتساع وقد يخترق الحدود بما فيها من دلالات نفسية عميقة .

12- استخدم الروائي بعض المصطلحات مثل الأساطير باعتبارها كائن مستشهد به عليه قد حاكي بها الواقع لإخراج القيمة المبتغاة .

13- أن أمكنة الرواية أمكنة فكرية فاعلة في تكوين المعمار الروائي اجتماعياً وعقائدياً، ذلك ؛ لأن للأماكن دلالات تختلف باختلاف بنياتها ، وتلك الأماكن هي فكرة فاعلة .

الهوامـــش :

(1)- المعجم الوسيط ،ابراهيم مصطفى وآخرون ،المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، اسطنبول ، تركيا ، الجزء الأول ، لات ،ص806.

(2)- سورة يس ، الآية 67 .

(3)- رائد الطلاب ،جبران مسعود ، دار العلم للملايين ،بيروت ، الطبعة الأولى ،2000،ص 113 .

(4)- لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر للنشر ،بيروت ،لبنان ، مادة 5(ك ،و ، ن)، الطبعة الخامسة ،1997 ،ص3960 .

(5)- ينظر : المصطلح السردي، جيرالد برنس ،ترجمة : عابد خزندار ،الطبعة الأولى ،2003، ص214 .

(6) - تحليل النص السردي ،تقنيات ومفاهيم ، محمد بوعزة ، دار الأمان ، الرباط ،الطبعة الأولى ، 2010 ،ص 99 .

(7)- بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،الطبعة الأولى ،2009 ، ص33 .

(8) – بناء الرواية العربية السورية ، سمر روحي الفيصل ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،1995 ،ص 251 .

(9)- بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ،ص 33 .

(10)- عودة الثعبان ، عمر أحمد جبريل ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ليبيا ، الطبعة الأولى ،2006 ،ص 15 .

(11)- عودة الثعبان ، عمر أحمد جبريل ، ص 16 .

(12)- كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،2003 ،ص 195 .

(13)- لسان العرب ،لابن منظور ، دار صادر للنشر ،بيروت ،لبنان ،مادة زمن ، الطبعة الثالثة ،1992 ، ص199 .

(14) - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ،مصطفى البابي والحلبي وأولاده ، مصر ،الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، 1952 ، ص233-234 .

(15)- سورة الضحى ،الآية 1-2.

(16) - العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر (دراسة نقدية)،مراد عبد الرحمن المبروك ، دار المعارف ،القاهرة ،الطبعة الأولى ، 1991 ، ص 217 .

(17) - الزمن في الرواية ، مندالو ، ترجمة : بكر عبا ، دار صادر، بيروت ، لبنان ،الطبعة ،1997 ، ص 17 .

(18) - ينظر : بناء الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، روايات تيار الوعي نموذجا ، مراد عبد الرحمن مبروك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ، 1998 ،ص 5.

(19)- ينظر :تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي للنشر، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 1989، ص 68 .

(20) - عودة الثعبان ، عمر أحمد جبريل ، ص 105 .

(21) - المصدر السابق ، ص11.

(22) - بنية النص السردي، حميد لحميداني ، دار الثقافي العربي ،الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الثالثة ، 2000، ص 73 .

(23) - ينظر : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، عبد الملك مرتاض ،المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 1988 ، ص 200.

(24) - عودة الثعبان ، عمر أحمد جبريل ، ص 9 .

(25) - ينظر : المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث ، أحمد رحيم كريم الخفاجي ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، لبنان ، ب ت ،ص307 ،309.